إيران والسباق إلى القوة

بروفيسور عبد الستار قاسم
sattarkassem@hotmail.com

قال هوبز، الفيلسوف الإنكليزي، منذ قرون أن الإنسان أناني بالطبيعة وعدواني، وهو لذلك دائم البحث عن القوة. يراكم الإنسان القوة لكي يبقى أقوى معتد من بين المعتدين. كانت العبارات متأثرة بالبيئة الأمنية التي عيشها هوبز، لكنها بقيت قاسية بحق الإنسان الفرد. إنها تحتوي على ثغرات منطقية وفلسفية وواقعية واسعة. وظني أنها كانت ستقترب من الحقيقة فيما لو وصفت الدول في علاقاتها المتبادلة. المصالح في العلاقات الدولية تعبر عن الأنانية، والقوة تشكل الضمان الأفضل لتحقيقها. ولهذا تسعى الدول إلى الحريصة على مصالحها إلى امتلاك أكبر قدر من القوة من أجل تبقى حاضرة سواء على طاولة التفاوض أو في ميدان المعركة.

القوة نسبية وليست مطلقة، ولا يوجد سقف نهائي لها؛ إنها تراكمية ومتغيرة ومتصاعدة. القوي يعمل على امتلاك مزيد من القوة، والضعيف ربما يحاول أن يكون قويا، والسباق يبقى محموما بين المتنافسين أو المتصارعين. الأقوى اليوم قد لا يكون كذلك غدا، والضعيف بالأمس قد يكون الأقوى الآن. ولهذا لا وجود للأقوى ولا للأضعف. وكم من صغير الحجم قصير القامة تغلب على فارع الطول ضخم البطن. وكم من ذكي نحيف هزم عملاقا مفتول العضلات. وفي تاريخ الصراعات الدولية، نرى فياتنام قد انتصرت، وكذلك حزب الله.

القوي يراقب بهدف أن يحافظ على احتكار القوة ليبقى محتكرا للقرار وقادرا على تحقيق مصالحه، لكن رقابته أعجز من أن تكون محكمة. لكل فعل رد فعل، ولكل واقع نقيضه، ولا شيء إلا ويحمل في الداخل ضده. فكلما ابتكر القوي وسائل لتشديد الرقابة طور الضعيف وسائل وأساليب التخفي. وكلما ظن القوي أنه في مأمن يجد أن في مأمنه الخطر. ألم تعمل إسرائيل على قتل الفلسطينيين وملاحقتهم ومطاردتهم وكانت تفاجأ دائما أن المقاومة الفلسطينية تخرج بوسائل وأساليب جديدة أكثر فعالية وفتكا؟

هل أمريكا هي الأقوى؟ إنها ترى ذلك، لكنها ليست كذلك لأنه لا وجود للأقوى. هزمتها فياتنام، وأرعبها تنظيم القاعدة، وهي تئن تحت وطأة المقاومة العراقية. وهي ليست اللاعب المحتكر على الساحة، وإنما هناك قوى تحاول أن تنهض بقوتها لتكون منافسا رئيسا ورادعا بالمثل. هناك الصين والاتحاد الأوروبي، كما أن روسيا لم تختف عن الأنظار. وهي تواجه أيضا تحديات من عالم إسلامي وعربي يرى أنه مظلوم ومضطهد وغير محترم. هل العرب والمسلمون مظلومون؟ هناك من يشعرون بأنهم غير مظلومين، وهناك من يشعرون بأن أمريكا تدوسهم بأقدامها كل يوم مباشرة وعبر إسرائيل. هناك من يحتمل مشاعر الذل، وهناك من يرفضها. وهنا حقت كلمة التاريخ. لا مفر سينهض من بين العرب والمسلمين من يتحدى ويبحث عن القوة ويعمل على فرض واقع جديد.

المسألة هنا لا تتعلق بتأييد حق إيران في الحصول على تقنية نووية وتصنيع قنابل ذرية أو برفضه، بل تتعلق بالمنطق الموضوعي للتاريخ. كل واقع يولد ضده أو نفيه، أو يصنع عوامل فنائه، وكل مظلوم يرفض الظلم بالطريقة التي يراها مناسبة بهدف رفع الظلم عن نفسه. فإذا قالت إيران أن لها الحق في امتلاك ما تراه الدول القوية نسبيا محرما، فإنها تعبر عن حق ضمن منطق تاريخي وليس بالضرورة قانوني. إنه المنطق الإنساني الذي يقول بأن للإنسان طاقة محدودة على تحمل الذل والظلم، وفي مرحلة ما تأتي ساعة الانفجار التي قد تكون علي وعلى أعدائي.

يتسلح القوي دائما بالقوة في تنفيذ أهدافه وتحقيق مصالحه، لكنه يبدو أنه يستعمل القانون والأخلاق والقيم الإنسانية الرفيعة ليبدو صاحب القلب الحنون، وهو سرعان ما يكشر عن أنيابه عندما تصبح مظاهر المودة غير مجدية. إسرائيل، مثلا، أعملت في رقاب العرب والفلسطينيين خاصة القنابل والرصاص، لكنها لا تتوقف عن التحدث بحقوق الإنسان والقلب الواسع الذي يستوعب الأعداء. إعمالها دفاع عن النفس، أما أعمال الفلسطينيين فإرهاب وإرعاب. هذا هو القوي. إنه صاحب معايير متقلبة وفقا للمصلحة وليس وفقا للحق ولمبادئ كونية. ما الذي يجعل من امتلاك إسرائيل للقنابل النووية أمرا مشروعا، بينما إيران أمرا تمرديا وفاحشيا؟ إنه منطق القوة، ولا منجاة لإيران إلا بمنطق القوة أيضا. قد يفيد منطق الأخلاق في المداولات في المحافل الدولية، لكن يجب ألا يخدع شخص نفسه بان الآخرين لا يعرفون الحقيقة الموضوعية. ليس بالضرورة القوة الظاهرة وإنما القوة الباطنة بالأساس.

إذا كنا نتحدث عن مبادئ، فهناك مبدأ كوني يقول بضرورة احترام حياة الإنسان. الأسلحة تعرض حياة الإنسان للخطر، وأشدها الأسلحة النووية. تم تطوير هذه الأسلحة أولا من قبل الولايات المتحدة لقتل الناس، وفعلا فعلت. كان ذلك أخلاقيا في حينه، ومن الممكن أن يكون كذلك إذا تطلبت مصالح أمريكا ذلك. أما إيران فلا يوجد لديها، حسب التعليل الغربي، أي مبرر أخلاقي. قتل ملايين البشر يصبح أخلاقيا حسب معيار المصلحة، والدفاع عن النفس يكون غير أخلاقي. وهكذا يدور تاريخ العلاقات الدولية.

لا إنكار لبعض النشاطات الإنسانية التعاونية في العلاقات الدولية، لكن هذه تبقى ضمن وضع الاستقرار والمحافظة على الوضع القائم. أما عندما يطرأ ما يمكن أن يهدد الاستقرار الذي يعكس دائما مصلحة القوي فإن الأمور تأخذ منحى آخر. القوي يريد استقرارا لأن في ذلك استمرار مصالحه، والضعيف والمظلوم يريدان تغييرا من أجل حياة بكرامة وتماسك ذاتي. إسرائيل لا تهدد الاستقرار العالمي لأنها ضمن دائرة الهيمنة الغربية، أما إيران فخارج السرب، ولن يسمح لها بامتلاك قوة رادعة حتى لو اطمأن الغرب إلى وداعتها. أما إيران فأمامها ذكاؤها لتصل إلى الخط الأحمر الذي يستحيل معها مهاجمتها.

أين الأخلاق في كل ذلك؟ لا نستطيع الخوض في معايير ذاتية أمام موضوعية الحدث. إن لم يكن الأمر متعلقا بالطبيعة الإنسانية أو بخلق الله، فإنه بالتأكيد متعلق بالواقع التاريخي الذي فرض نفسه بقوة عبر الأحداث. هنا نستطيع التحدث عن حتمية وليس عن أخلاق.